إنتقال المدنية الإسلامية إلى الغرب

للأستاذ جابر سيد الجزار

هب المسلمون من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ليكونوا امبراطورية عظيمة مترامية الأطراف — فسارت الحضارة فى ركابهم أينما حلوا — وصاحبتهم المدنية كيفما اتجهوا — فلم يقتصر أثرهم الحضارى على الشرق وإنما كان تأثيرهم فى الغرب لايقل خطورة وأهمية — يقول « لوبون » : ولقد كان أثر حضارة المسلمين فى الغرب قويا فى النواحى العلمية والأدبية والخلقية » .

أما المعابر التى سلكتها الحضارة الإسلامية فى طريقها إلى أوربا فهى : سوريا ، وصقلية ، والأندلس . واستانبول وسأتناول كلا منها بإيجاز :

١ — سوريا :

فقد كانت — وما ارتبط بمسرحها من حروب صليبية — ذات أثر فعال فى هذا الميدان . فالحروب الصليبية قد صحبها بعض النشاط الفكرى والحضارى — إذ وجد من اللاتين — الذين استقروا فى الأراضى المقدسة — من كتب فى التاريخ مثل : « وليم الصورى » ، أو فى القانون مثل : « حنا الإبلينى » و « فيليب نافارى » كما انسابت بعض الكلمات والمصطلحات العربية إلى اللغات الغربية . كذلك أثرت الحروب الصليبية فى تطور فن الحرب عند الغربيين . ولا سيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة ، هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه الحرب من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباش الهادمة واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل . . ومن المحتمل أن يكون الغرب قد أخذ عن الشرق — إبان الحروب الصليبية — ألعاب المبارزة التى تشبه كثيراً ألعاب « التحطيب » عند الشرقيين . كذلك نلاحظ كثرة استعمال الشارات والرنوك نتيجة الاتصال بالمسلمين فى سوريا .

وبالنظر إلى المؤثرات الإسلامية فى الحياة الأوربية نتيجة لنمو التبادل التجارى الذى أثارته الحروب الصليبية نلاحظ انتقال نباتات وحاصلات وأشجار جديدة من

شرق البحر المتوسط إلى غربه مثل : الثوم والبطيخ والأرز والليمون ، كذلك انتشرت فى الغرب العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية كما كثر استعمال وصناعة الأقمشة التى نسبت إلى بلدان الشرق مثل : الموسلين . نسبة إلى الموصل ، والدمشق . نسبة إلى دمشق ، وغيرها .

وكذلك الناعورة نقلها الصليبيون من حماة إلى بلادهم . فعندما شاهدوا النواعير ترفع المياه من نهر العاصى أعجبوا بها فاقتبسوها بأن نقلوا نماذج منها إلى ألمانيا .

٢ — صقلية :

وهى المعبر الثانى الذى انتقلت عنه حضارة الإسلام إلى غرب أوربا حيث صار للثقافة الإسلامية شأن كبير .

فالأمر الثابت أن صقلية وجنوب إيطاليا وأسبانيا كانت هى المراكز الثلاثة للثقافة الإسلامية فى الغرب .

هذا وقد اهتم المسلمون فى القرن التاسع الميلادى بوسائل الزراعة فى صقلية والقنوات وأنشأوا المجارى المعقوفة التى كانت مجهولة قبلهم كما أدخلوا زراعة القطن وقصب السكر . وفى الصناعة اشتغلوا بالتعدين فاستخرجوا الفضة والحديد والنحاس والكبريت ، وكذا أدخلوا صناعة الحرير . كما ارتفعت التجارة فى عهدهم وقد كانت قبلهم فى الحضيض . أما العمارة فقد بلغت حد الروعة . ونستدل على هذا من النادر المتبقى من مبانى المسلمين فى صقلية .

هذا ولم تنته الحضارة الإسلامية بانتهاء حكم المسلمين فى صقلية فقد وجدت فى ملوك النورمان خير مشجع لها لما لمسوه من تقدم فى الفنون والصناعات والعلوم . . ويوجد فى « نورمبرج » رداء من الحرير اعتداد ارتداءه ملوك صقلية وهو مطرز بكتابات عربية بخط كوفى يرجع تاريخه إلى سنة ١١٣٣ . كما شجع ملوك صقلية ترجمة الكتب والمؤلفات العربية واحتفوا بالعلماء والأدباء والجغرافيين والفلكيين المسلمين . ولأمر ما نرى الشعر الشعبى المبكر فى إيطاليا يتفق فى أوزانه مع الشعر الشعبى الأندلسى مما يدل على أن الثقافة الإسلامية كانت هى المؤثر الواحد فى الحالتين.

٣ — أسبانيا :

ولاشك أن الفضل الأكبر فى تغذية غرب أوربا بأصول الحضارة يرجع إلى عرب

أسبانيا ، فقد تولوا تقديم خلاصة الفكر الإسلامى فى العلوم والفنون والآداب والفلسفة إلى الغربيين . هذا فضلا عن تعريفهم بالكثير من تراث الإغريق الذى اندثر ولم يبق إلا ما ترجم منه إلى العربية بمعرفة المسلمين .

وقد كانت أسبانيا قبل الفتح الإسلامى لها — فى أوائل القرن الثامن — كسائر بلاد الغرب الأوربى المعاصر يخيم عليها الجهل والتأخر والفوضى . وليس أدل على ذلك من اشتراك أحد كبار أمرائها مع رئيس الأساقفة بأشبيلية فى مساعدة المسلمين على فتح أسبانيا فنقلوها إلى مرحلة استقرار وإنشاء حتى أصبحت — فى ظل الأمويين — أغنى البلاد الأوربية وأكثرها ازدحاماً بالسكان . وانصرفوا بعد فتحها إلى الاهتمام بالعلوم والآداب والفنون فابتكروا وجددوا فى هذه الميادين مما أتاح لأوربا مورداً عذبا استساغت شرابه فظلت تنهل منه منذئذ حتى النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر . بل وبعد ذلك أيضا . . وقد وصلت الحضارة الاسلامية ذروتها فى الأندلس فى منتصف القرن العاشر عندما أصبحت قرطبة — عاصمة الخلافة الأموية — من أعظم مدن العالم ، بها ما يزيد على مائتى ألف منزل يسكنها مليون نسمة كان يمكنهم السير فى شوارعها المنظمة بعد غروب الشمس على ضوء المصابيح العامة . بينما ظلت «لندن» سبعة قرون — بعد ذلك لا يوجد فى طرقاتها مصباح عام واحد يضىء ليلا .

وقد أقبل المستعربون الأسبان على استعمال اللغة العربية — لغة الفاتحين — بل وتفضيلها على اللاتينية كما تتلمذ كثير من يهود أسبانيا على أساتذتهم المسلمون مما أوجد مدرسة كبيرة من غير المسلمين يستطيع أفرادها القيام بالسفارة بين المدنية الإسلامية فى الأندلس وأهالى غرب أوربا المتلهفين على تعرف علوم المسلمين ومعارفهم . . وعندما سقطت طليطلة فى أيدى المسلمين سنة ١٠٨٥ م ازداد تدفق طلاب العلم من غرب أوربا إلى أسبانيا للاستزادة من العلوم والفنون الإسلامية فنشطت حركة الترجمة عن العربية — وقتئذ — نشاطاً منقطع النظير استمر حتى القرن الخامس عشر الميلادى .

وإذ ظن بعض المتعصبين من المسيحيين — مثل رئيس الأساقفة الأسبانى « الزيمينيس » الذى حرق أكثر من ثمانين ألف كتاب عربى — أنهم — بذلك — يستطيعون محو آثار الحضارة الإسلامية بالأندلس — فإن هؤلاء فاتهم أن ما تركه المسلمون من طرق معبدة وجسور مرفوعة ومشافى وفنادق مبثوثة كل ذلك كفيل بتخليد اسم المسلمين . . والإشادة بآثارهم .

قال لوبون: « إنه لا يوجد فى أسبانيا المعاصرة من أعمال الرى سوى ما أتمه العرب »

٤ — المستشرقون :

هذا وإن كانت هذه هى أهم المعابر التى انتقلت عبرها المدنية الإسلامية إلى الغرب فإنها لم تكن كلها . . ذلك أنه لما لم تكن هناك خطة منظمة لنقل وترجمة معارف المسلمين إلى لغات العرب فى العصور الوسطى فقد انتبه الأوربيون من غفلتهم ليجدوا أمامهم معيناً لا ينضب من المؤلفات العربية فى شتى العلوم والفنون فأقبلوا ينهلون منه. فهذا : « أدلارد الباثى » قام برحلة طويلة طلباً للعلم وطاف بمصر والشام وأسبانيا ودرس على المسلمين علمى الفلك والهندسة — ومثله : « ليوناردو فيبوناتشى » الذى عاصر « فردريك الثانى » فقد طاف بمصر وسوريا حيث تعلم الجبر عن العلماء المسلمين وكان أول مسيحى اشتغل به .

وفى الوقت الذى قيدت فيه الكنيسة تفكير الأهالى — فى غرب أوربا — بتزمتها وإلزامهم بحصر نشاطهم الفكرى داخل حدود معينة كان مفكروا الإسلام وعلى رأسهم « ابن رشد » يضربون للعالم مثلا فريداً فى حرية الفكر . . لذا ولى الأوربيون وجوههم شطر الحضارة الإسلامية وانكبوا على دراسة علوم المسلمين بشراهة وحماس مما ترك آثارا واضحة فى الحياة الفكرية فى أوربا فى مختلف فروع المعرفة حتى فى العصر الحديث اتجه الأوربيون للإفادة من التراث الإسلامى الذى كان — حتى أوائل القرن الحالى — مغموراً محجوبا أغلبه . وكانت المطابع قد ظهرت فى أوربا منذ أواخر القرن الخامس عشر ، وطبعت فى روما بعد ذلك بنحو قرن كثيراً من الكتب والوثائق الإسلامية . . فأصبحت مدينة « ليون » منذ القرن السابع عشر مركزاً هاماً لنشر الآثار الإسلامية . وقد ظهرت بعض الكتب العربية لأول مرة بترجمات لاتينية كانت منذ ظهورها مستقى خصباً لمؤرخى الغرب — وكذلك كانت المطابع الأوربية — ولا سيما فى ليدن وباريس — قد نشطت منذ أوائل القرن التاسع عشر لإخراج طائفة كبيرة من الآثار العربية النفيسة على يد عدد من أعلام المستشرقين . ولتبين مدى تأثير المسلمين فى أوربا فسأتناول كلا من ألوان النشاط الفكرى والثقافى والفنى على حدة . . قال ديورانت : « ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامى إلا جزءا يسيرا مما بقى من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقى إلا قسما ضئيلا وليس ما أثبتناه فى هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم » .